

## مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية<sup>(\*)</sup>

البروفسور هنري كوريان



الماف

**المجحة** يسرنا أن ننشر محاضرة<sup>(١)</sup> ألقاها د.هنري كوريان في كلية الآداب بطهران عن حكيم فيلسوف يمثل دوراً بارزاً في الفلسفة المشرقية منذ نصف وثلاثة قرون، ولا يزال مجھول الدور والأثر والقيمة في العالم العربي، لأنّه لم يقِيض له من يهتم بآثاره ويعرفه كما يجب.

إن الشائع المستقر في الأذهان أن الفلسفة الإسلامية أطفأت آخر شعلة لها يوم وارت الشري ابن رشد آخر أعلامها في القرون الوسطى، إلا أن الواقع أن هذه الفلسفة لم تمت في ديار المشرق، بل سرعان ما أوقدت شعلتها مدرسة فلسفية قامت في إيران وأواخر القرن الهجري التاسع، وعرفت في دنيا الفكر باسم «مدرسة اصفهان الفلسفية» وفي طليعة اعلام هذه المدرسة ومن أبرز رجالاتها وأغزرهم عطاء الحكيم الذي يعرفه هنا البروفسور كوريان تعريفاً فكرياً وروحيّاً، صدر الدين بن محمد الشيرازي، الملقب بـ(ملا صدر).

وفيما يلي نص المحاضرة:

❖❖❖❖

لعل بعض الحضور الكرام يذكرون أننا اجتمعنا منذ بضع سنوات في هذا المكان وتحديثنا عن واحد من كبار المفكرين يسيطر اسمه على ما نسميه اليوم «مدرسة أصفهان». هذا الحكيم السامي هو «ميرداماد» أحد أبرز شخصيات النهضة الصوفية. بين تلاميذه

### ♦ مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية

البروفسور هنري كوريان

### ♦ المعرفة العرفانية عند الملا صدرا

د. شهرام بازوكى

### ♦ كأني أعرف ملاً صدرا

د. طراد حمادة

٧ - ٨ أبيض

(\*) منقولة عن مجلة «الدراسات الأدبية».

(١) نُشرت هذه المحاضرة باللغة الفرنسية في Studia Islamica وُنشرت ترجمتها الفارسية بقلم الاستاذ الدكتور سيد حسين نصر في مجلة كلية الآداب بجامعة طهران العدد الأول من السنة الثانية عشرة.

الشخصية الخاصة. إن هذين الاسمين، وهذا الأثر، غير قابلة للافتكاك عن بعض، ولذا كنت أحس أن السهوروبي أخذ بيدي - لو أمكنني أن أقول هذا - وأرشدني إلى ذلك المكان الذي هو «وطني المعنوي». ومع أن الشخصيات البارزة التي جرى معها حديث ومحاجات عن السهوروبي وصدر الدين الشيرازي كانت كثيرة ولا شك، إلا أن كتابات الحكيمين كلّهما كانت لا تزال غامضة بعضاً الشيء دون ما هما أهل له من شهرة وتقدير.وها ان الاحتفالات الرسمية التي ارتفعت مشاعلها اليوم، تدل على الاهتمام بتلك الآثار وتقديرها. أنا لا أريد في هذا الحديث أن أرى لأمر آنني سريع الزوال أهمية فائقة، بل إنني أفكّر بأمر أعمق وأجلّ، أمر تظاهره وتدل عليه سلسلة من المنشورات.

#### \* تقدير خاص للعلامة الطباطبائي:

أريد أولاً أن أظهر تقديرني للاستاذ الفاضل العالمة السيد محمد حسين الطباطبائي استاذ العلوم العقلية في حاضرة «قم» العلمية الدينية على مساعيه وجهوده في الطبعة الجديدة من كتاب «الأسفار» رائعة ملا صدرا الكبرى التي سنتحدث عنها بعد قليل، والتي انتشر منها حتى الآن أربعة مجلدات<sup>(١)</sup>. ثم ان الاستعدادات للاحتفال بذكرى ولادته منذ أربعينية سنة حملت على طبع تأليفه التي لم تكن قد طُبعت بعد، فقد وضع السيد جلال الدين الآشتيني الاستاذ المساعد بكلية العلوم المعقولة والمنقوله في «مشهد» كتاباً جاماً عن سيرة ملا صدرا، وأثاره، وأفكاره الفلسفية، وطبع أحد مؤلفاته العربية، ثم ألف كتاباً كبيراً مبنياً على أفكاره الخاصة عن الوجود<sup>(٢)</sup>. ونشرت كلية العلوم المعقولة والمنقوله في جامعة طهران من جهة أخرى عدة كتب، كما أن صديقي وزميلي الدكتور السيد حسين نصر الاستاذ المساعد بكلية الآداب فيها طبع بصورة منقحة لأول مرة رسالة «الأصول الثلاثة» التي وضعها ملا صدرا بالفارسية، والتي كُتبت على الأكثر للرد على القشريين

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع، طهران ١٣٧٨ فيما بعد. طبع حتى الآن القسمان الأول والثاني من السفرتين الأولى والرابع.

(٢) شرح حال وأرای فلسفی ملا صدر، مشهد ١٣٤١، هستی از نظر فلسفه وعرفان، مشهد ١٣٨٠، المظاهر الإلهية مؤلفه الحكيم الإلهي الفيلسوف الرياني صدر الدين محمد الشيرازي، مشهد، ١٣٨١، جملکی بقلم وبا تصحیح اقای سید جلال الدين آشتینی.

المتعددين الذين يشكلون أسرته المعنوية يحتل اسم ملا صدرا المرتبة الأولى، حتى لقد غطَّ آثاره، إلى حدٍ ما، كتابات استاذه المعروفة بعقدتها وإبهامها. واليوم، وقد صممت على التحدث عنه، فإني أفعل ذلك عن قصد مشخص هادف.

#### \* ولادته:

ولد صدر الدين الشيرازي - استاداً إلى ما يمكن استنباطه من حاشية كتبها بنفسه لأحد آثاره - حوالي سنة ٩٧٩ أو ٩٨٠ هجرية قمرية (أي حوالي ١٥٧٣ ميلادية)، ونحن الآن<sup>(١)</sup> (أي خلال سنة ١٩٦٢ ميلادية)، نعيش في العام ١٣٨٢ هـ، أي إننا منذ سنتين خلتا بحساب السنوات القمرية، واجهنا ذكرى مرور أربعينية سنة (٩٨٠ - ١٣٨٠) على ولادة هذا الحكيم الكبير. وقد احتفل في «كلكتا» في العام الماضي بهذه الذكرى بمساعي المجمع الايراني (انجمن ایران)<sup>(٢)</sup>، وأظن أن جامعة طهران قد نمت عن رغبة في إقامة احتفال مجلل في هذه الحاضرة أيضاً بمناسبة هذه الذكرى، رغم العوائق التي أخرت إقامته.

#### \* الشيرازي ووطني المعنوي:

إن بحثنا، بناءً على هذا، ليس أكثر من مقدمة، ولكنها مقدمة يتذرع علىَّ أن أنهىها إلى أسماع المستمعين إلاَّ مع نوع من العاطفة الشخصية تمنعني العذر في أنني سأتصرف في محاضرتني بعض التصرف، وفي أن أضيف بعض الخواطر الخاصة التي عرضت لي حين جئت ایران لأول مرة منذ سبعة عشر عاماً (في ايلول - سبتمبر ١٩٤٥). ففي ذلك الحين كان قد مضى علىَّ سنوات في تركيا قضيتها في إعداد قسم من كتابات شهاب الدين يحيى السهوروبي، ذلك الذي يُعرف في ایران بلقب «شيخ الاشراق»، والذي استُشهد في حلب سنة ٥٨٧ وهو بعد في الثامنة والثلاثين من عمره.

ولقد كتب صدر الدين الشيرازي - حكماء آخرين - شرحاً لكتاب ضمَّنه السهوروبي كلَّ أفكاره خلال حياته القصيرة، وكان شرح ملا صدرا هذا بسطاً وعرضياً لعتقداته

(١) عام إلقاء المحاضرة - المترجم.

(٢) راجع العدد الخاص من مجلة ایندو ایرانیکا، كانون الأول - ديسمبر ١٩٦١، وكذلك كراس (ذكرى ملا صدرا) المقرر أن يصدره المجمع الايراني في كلكتا.

## ١ - سيرة ملا صدرا:

ولد صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي - الذي يُعرف غالباً بلقبه المختص به «ملا صدرا» أو «صدر المتألهين» - في شيراز. أما تاريخ ولادته فلم يكن محدداً حتى فترة متأخرة، حين ظهرت في حاشية نسخة كانت منقوولة - كما سبقت الاشارة - عن النسخة الأصلية الأولى، عبارة كان كتبها ملا صدرا تعليقاً على موضوع وارد في المتن، وفيها يقول: «أفيض علىَّ هذا الموضوع ساعة طلوع الشمس من يوم الجمعة السابع من جمادى الأولى من سنة ١٠٣٧ هجرية، وكان لي من العمر ثمان وخمسون سنة»<sup>(١)</sup>. وبعملية حسابية بسيطة يتضح أن ملا صدرا ولد حوالي سنة ٩٧٩ أو ٩٨٠ هـ (١٥٧٢ - ١٥٧٣م)، وأن تاريخ ولادته هذا، وتاريخ رحلته عن هذا العالم، هما التاريخان الوحيدان اللذان يمكن التيقن منهما في سيرة حياته.

إن ما في حياة ملا صدرا من جمال وجلال ليس في الظروف والأوضاع الخارجية، بل ان العوامل الخارجية لم يكن لها في حياته إلا دور مقلق نتاجه الانطرباب وعدم الاستقرار، ولم تيسر له حياة رافةة مجملة. ان ترجمة شخص مثل ملا صدرا تتلمس في الواقع في منحنيات حياته الباطنية، في تطورات تفكيره، وتأليف مصنفاته، في تعاليمه، وفي رابطته بتلاميذه الذين خلفوا بدورهم آثاراً كانت تسمح لاستاذهم أن يفتخر بها.

### \* المصادر الثلاث لحياة الشيرازي:

في حياة صدر الدين ثلاثة مراحل واضحة يمكن تمييز كل منها من سواها. كان أبوه، وهو من المرموقين، على حال من اليسار تمكنه من أن يوفر لابنه كل ما تتطلبه تربيته وتعليمه، كما أن الابن، بما كان له من نبوغ، واستعداد فكري، وصفات خلقية، وهب نفسه، كذلك، لهذه التعاليم. ولم تكن اصفهان في هذه الفترة عاصمة الصوفيين السياسيين فحسب، بل كانت تُعد كذلك مركز الحياة العملية في ايران: فقد كانت مدارسها - التي لا يزال بعضها مستمراً حتى اليوم - في أوج فعاليتها، وكان اكبر العلماء قد

(١) اكتشف هذه الحاشية السيد محمد حسين الطباطبائي اثناء تصحيح متون الاشعار. وقد ذكرت هذه الحاشية ضمن مذكرة اخرى كتبها ملا صدرا على كتابه، في النسخة التي نقلت سنة ١٩٦٧ عن النسخة الأصلية المفقودة اليوم. راجع مقدمة الدكتور السيد حسين نصر لرسالة الأصول الثلاثة، ص٢، الحاشية ٢.

والناظرین الى الظواهر<sup>(٢)</sup>. كذلك طبع السيد دانش بزوه رئيس المكتبة المركزية في جامعة طهران رسالة لم تكن قد طُبعت بعد، وهي رسالة موضوعة للرد على بعض الغلاة من المتصوفة<sup>(٣)</sup>، وقد نشرت كلية الآداب بأصفهان ترجمتين لا مجال هنا لذكرهما<sup>(٤)</sup>.

ولقد ساهم فرع الدراسات الإيرانية من مؤسستا الفرنسية الإيرانية (فرانكو إيراني) في هذه النهضة لطبع آثار ملا صدرا بطبع «كتاب المشاعر» طبعة دقيقة؛ والواقع أن نشر هذا الكتاب هو تكميل للمساعي التي يقوم بها، من جهة أخرى، قسم العلوم الدينية في مدرسة الأبحاث العليا بجامعة السوربون، حيث ادخلت في برامج منبر «الدراسات الإسلامية» خلال السنوات الأربع الماضية شرح آثار صدر الدين الشيرازي. وافتخر بأنني أعاود إلقاء هذه الدروس مرة أخرى في جلسات عدة خلال فصل الخريف من كل سنة في كلية الآداب في طهران<sup>(٥)</sup>. من مجموع هذه الفعاليات تأتي نتيجة تؤكد أنها المداولات وتبادل الآراء المتعددة، هي أن انبعاثاً في الحكمة الإلهية الإسلامية على شرف التكون، انبعاثاً ينطلق من آثار حكيم كان هو نفسه مجدداً حقيقياً.

(١) رساله سه اصل، بانضمام منتخب مشوي ورباعيات صدر الدين شيرازي، بتصحيح واهتمام الدكتور سید حسین نصر، طهران ١٣٤٠.

(٢) كسر اصنام الجاهلية، به تصحيح ومقدمه اقای محمد تقی دانش بزوه، طهران ١٣٤٠.

(٣) الترجمات الفارسية لكتاب المشاعر وكتاب الحكم العرشية، بقلم السيد غلام حسین آهنی، اصفهان ١٣٤١، ولها في الغالب طابع التقسيم.

(٤) كتاب المشاعر، المتن العربي والترجمة الفارسية مع ترجمة فرنسية ومقدمة من السيد هنري كوربان، طهران ١٣٤٢. ان هذا الكتاب الهام الذي يضم افكار ملا صدرا في موضوع الوجود شرح عدة مرات، وقد صبح السيد جلال الدين الاشتياي شرح ملا جعفر لنکرودی وسینشره قریباً.

راجع بشأن المراجع باللغة الفرنسية الصفات التي ترجمها السيد هنري كوربان عن كتاب الحكم العرشية في:  
La terre Celeste et Corps de resurrection de l'Iran Mazdeen a Iran shi'ite, Paris, 1961.

ص ٢٥٧ - ٢٥٨، وكذلك مقالة السيد كوربان:  
Le theme de la resurrection dans le Commentaire de Molla Sadra Shirazi sur la Theosophie orientale de

Solirawardi; Shaykh al-Isharag.

المقرر أن تنشر في كراس ذكرى ملا صدرا الذي سينشره المجمع الإيراني في كلكتا.

راجع بشأن شرح اصول الكافي تقرير السيد كوربان (سنة ١٩٥٢ - ١٩٦٣م) في:

Annuaire de l'Ecole pratique des Hautes - Etudes, Section des Sciences religieuses.

المتون السانسكريتية الى الفارسية التي كانت لها أهمية كبرى من الناحية الثقافية، وبواسطة هذه الترجمات بدأ المذهب الهندي يتكلم بلغة المتصوفة الفرس (لا ننس أن انكتيل دوبرون Anquetil - Duperron كان يعرف «أوبانيشادات» بصورة ترجماتها الفارسية). ومع ذكر اسم هذا الاستاذ من أساتذة ملا صدرا، يمكننا أن نتخذ فكرة عن المعنى، اكتسبها في المرحلة الأولى، من عمره، مرحلة التلمذة من حياته.

#### \* المرحلة الثانية من حماة الشرازى:

وتبدأ الآن المرحلة الثانية. هنا يجب ألا يُظنَّ أن الظروف كانت ملائمة، وخاصةً من يتبَعُ أفكاره وانفعالاته الداخلية الخاصة بصورة مستمرة لا تعرف المساومة. بل، ويعلم أنه كلما ازداد تقدماً ازداد يقيناً بأنه سيواجه خصومة المقلدين واتباع الظواهر. لقد عانى ملا صدراً مثل هذه التجربة القاسية، كما يتضح من بعض جمل من كتابه الرئيسي حيث يقول<sup>(١)</sup>: «في العهد الماضي، صرفت قوايًّا من مطلع شبابي للفلسفة الإلهية، فاطلعت في حدود ما أمكنني على مؤلفات الحكماء السابقين وبعدهم الفضلاء اللاحقين، ووقفت على نتائج إلهاماتهم ونظرياتهم، وأفدت من ابداعهم وأسرارهم، ولخَّست ما وقعت عليه من كتب اليونان واعلام المعلميين، مختاراً اللباب من كل باب من أبوابها، ومتحاشياً الاطالة والاطناب (ص٤)... إلاَّ أن عوائق كانت تمنع من الوصول إلى هذا الغرض، وكانت الأيام تمضي، واحداً بعد آخر دون أن أبلغ هدفي...» (ص٤).

ولما شاهدت عداوة الدهر في أخلاق الجهلة والأرذل، ورأيت شمول الجهلة والضلاله  
وسوء الأحوال والأوضاع وقبع الناس، وبليت بقوم امكانية الفهم فيهم معدومة، وعيونهم  
تلقاء انوار الحكمة وأسرارها عمياً...<sup>(ص ٤)</sup> قادني انكسار الخاطر، وجمود الطبيعة أمام  
عداوة الزمان، ومناؤة الأيام، إلى أن اختار الانزواء في بعض نواحي الديار، وأن أختفي  
كسير القلب في دنيا النكران وخمول الذكر...<sup>(ص ٦)</sup> واخترت كما أمر سيدي ومولاي  
ومعتمدي، أول الأئمة والأوصياء وأبو الشهداء الأولياء، قسيم الجنّة والنار، طريق  
الحقيقة...»<sup>(ص ٧)</sup>.

(١) نقلًا عن طبعة أسفار العلامة الطباطبائي. أرقام الصفحات في المتن.

اجتمعوا فيها، وقد شملت تعاليمهم مختلف شعب العلوم والمعارف، لذا كان طبيعياً أن يترك صدر الدين موطنه الأصلي شيراز وأن يوم اصفهان ليكمل فيها مرحلة تحصيله. وهنا، يجب أن لا نقيس المرحلة الدراسية، في ذلك الزمان، ببرامج الجامعات الحديثة، حيث يمكن بعد بضع سنوات الحصول على «الليسانس» والدكتوراه، لأن مرحلة درسٍ ما، كانت تستغرق قسماً كبيراً من عمر الإنسان، بل لعلها كانت تقتضي أن يصرف المرء على بعض العلوم، التي يؤمن أن يتعمق فيها عمره كله. إن مرتبة الاجتهاد كانت تحتاج إلى عشرين سنة على الأقل.

#### \* أساتذة الشريازى أو المرحلة الأولي:

كان لصدر الدين في اصفهان ثلاثة معلمين احتلت اسماؤهم مكاناً وشهرة في تاريخ ایران الفكري والمعنوي. ففي المرحلة الأولى درس ملا صدرا على الشيخ بهاء الدين العاملي (الذى يدعى عادة الشيخ البهائي وفاته ١٠٣٠<sup>(١)</sup>) العلوم الاسلامية النقلية كالتفصير والحديث عند الشيعة والفقه وسواها حتى أجازه فيها. وكان الشيخ البهائي يُظهر طوال حياته صداقة ومودة بالغتين نحو ميرداماد (توفي ١٠٤٠) الاستاذ الذي سبقت الاشارة اليه في مقدمة هذه المقالة، والذي كان تلاميذه يدعونه المعلم الثالث بعد ارسطو المعلم الأول والفارابي المعلم الثاني<sup>(٢)</sup> - والذي كان يرى - كالسهروردي - أن الفلسفة التي لا تؤدي الى كشف معنوي وتحليل عرفاني انما هي عبث وجهد مضيع. ميرداماد هذا هو الذي كان موجّه ملا صدرا في فترة تحصيله واستاذه في الفلسفة النظرية.

ثم إن صدر الدين - مع أن الشواهد على هذا الأمر ليست دقيقة تماماً - كان تلميذاً لشخصية عجيبة غير عادية هي شخصية «مير ابو القاسم فندرسكي». ففي هذا الوقت من الزمن كان التقليل بين ايران والهند متواصلاً ساعد عليه وسهله منه اصلاحات «أكبر» الدينية، وكان الفلسفه الايرانيون، وبخاصة منهم اتباع مدرسة السهوروادي الاشرافية، كثريين في بلاط اكبر؛ ولقد كان مير ابو القاسم فندرسكي دور فعال في حركة ترجمة

(١) راجع عن الشيخ البهائي المراجع الواردة في مقدمة الدكتور السيد حسين نصر، ص ٣، الحاشية ٣.

(٢) راجع مقالة السيد كوربان في Melanges, Louis Masson, Vol I, Domas Confessions exactiques de Mir Damad maitre de theologie a Ispahan.

#### \* المرحلة الثالثة من حياة الشيرازى:

إلا أن هذه الرحبات التي تقوم في جنباتها نقاط وعلامات عرفانية، والتي تقوم منها قبة حرم «قم» المشعة مقام القطب والمركز، ما عتم ملا صدراً أن اضطر مرة أخرى إلى مفارقتها؛ وهنا بدأت المرحلة الثالثة من حياته. وخلال تلك السنوات التسع، أو الأحدى عشرة، التي قضتها ملا صدراً في «كُهك»، توصل إلى كشف الحقائق المعنوية، وبلغ مقام المشاهدة الذي ليست الفلسفة إلا مقدمة ضرورية له، وليس في نظره ونظر جميع أتباع مدرسته إلا عملاً عقيماً، ومحاولة واهية عابثة، إذا لم تنته إلى هذا المقام.

إن إنساناً في مقام ملا صدراً أو شخصيته، لا يستطيع، مهما حاول أن ينجح في اخفاء سر خلوته واعتزale، أن يحد شهرته من أن تتسع وتتشر، ولذا لم يستطع ملا صدراً أيضاً أن يمنع التلامذة والمريدين من أن يطبقوا عليه ويقبلوا على مجالسه، ولقد حلَّت تلك اللحظة حين صمم والي مقاطعة «فارس» الله وردي خان(١) على بناء مدرسة كبيرة في شيراز، واستدعي ملا صدراً بموافقة الشاه عباس الثاني طالباً منه العودة إلى بلده الأول والتدرُّس في المدرسة الجديدة.

إن الغرفة التي كان ملا صدرا يعلم فيها لا تزال مشاهدتها في تلك المدرسة المعروفة اليوم باسم «مدرسة خان» ممكنة، وليس عجباً أن تصبح شيراز بسرعة، بسبب انتقال صدر الدين إليها، مركزاً علمياً كبيراً كأصفهان.

كان «الاستاذ» يعيش في تلك المدينة، مستغرقاً في التعليم وإعداد الطلبة وتوجيههم، وفي تأليف كتب بقى بعضها ناقصاً للأسف، وان التعاليم الأخلاقية الرفيعة التي كان يعلمها طلابه والتي ظلّ هو يعيشها ويطبقها، لخير وسبل تعريف شخصيته؛ وهذه التعاليم

(١) الله وردي خان خلفه ابته امام قلي خان الذيولي أمرور مقاطعة فارس متذ سنة ١٠٢٣ ومتوفي سنة ١٠٢١ . راجع مقدمة السيد دانش بثروه لكتاب «كسر أصنام الجاهلية» ص ٢ فيما بعد . يمكن الاعتراف ان ملا صدرا اتى شيراز بين ١٠٢٣ و ١٠١٠ ، فبنياءً على هذا مارس التدريس قريباً من أربعين سنة . ولكن السيد دانش بثروه - استناداً الى بعض السنوات المذكورة في سيرة ملا محسن فيض التي اوردها السيد محمد مشکواه في مقدمة الجزء الرابع من كتاب «المحجة البيضاء» (طهران ١٣٣٩ش - ١٨٦٠م) - آخر تاريخ مجيء ملا صدرا شيراز حتى سنة ١٠٤٢ . والحق أن هذا التاريخ متأخر . ومن المحتمل أن تكون الحقيقة بين هاتين السنتين، ولا يمكن الدخول في بحث التفاصيل في هذا الموضوع، للأسف.

إن الوضع الذي كان ملا صدرا في ذلك العهد، لم يكن - كما لعله كان يظن - وفقاً عليه وحده، بل ان فلسنته ايضاً كانت بدورها تواجه وضعاً معقداً مؤسفاً كان يواجهه كل جيل، والسبب في ذلك، أن غايتها في الحياة، التي سنتحدث عن نتائجها فيما بعد، إنما كانت تعليم التشيع بمعنى جامع، لذا لم يكن له سبيل للتخلص من كيد الجهلة سوى ان يفارق حياة اصفهان الجياشة ليبدأ إلى مكان منزو بعيد، وكان هذا المكان الذي اختاره لخلوته قرية «كُوك» على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مدينة «قم».

## • الطبيعة العرفانية لـ «كمك»:

إذا غادر المرء «قم» في اتجاه «اصفهان»، فان عليه بعد مسيرة كيلومترات عده أن ينحرف عن الجادة ليسلك شرقاً طريقاً ضيقاً تنتهي به، بعد حوالى خمسة عشر كيلومتراً صحراوية، الى سلسلة من الجبال، حيث يتراهى وادٍ مرتفع يعود بالمشاهد الى خاصة التضاد التي هي من ميزات طبيعة ايران، وكلما أوغل المرء في قلب الوادي تنحى طابع الصحراء الجاف ليخلو مكانه لخضرة النباتات النامية.

إن «كهك» مجموعة من بساتين عدة يقوم بجانبها مسجد صغير من القرن الحادي عشر غريب التصميم والهندسة، وفيها قلعة قديمة جد شاعرية، وضريح مكتمل الهندسة لسيدة من سلالة الأئمة يطلق عليه ضريح المعصومة. وان عندي الآن صورة واضحة عن هذه المجموعة كلها لأنني استطعت أن أشاهد تلك الطبيعة التي فيها غرق في عظمة الوحدة حوالي تسع أو احدى عشرة سنة للتأمل والتفكير، فقد زرت مؤخراً تلك الطبيعة بصحبة صديقين ايرانيين عزيزين. إلا أن من الواجب على من يريد أن يدرك جميع الأوصاف والأحوال العرفانية لهذه الديار، إلا يسلك في طريق عودته الى «قم» الجادة الأصلية، بل أن يتوجه إلى الشرق مرة أخرى في الطريق التي تنتهي الى قرية «جم كران» ليصل الى حرم يُنسب الى من كان منذ اكثرب من عشرة قرون التاريخ السري للوجдан الشيعي، أعني الامام الثاني عشر الغائب. هناك كما موقنين أننا سنجد في الغيبة كل الزوار الذين أموا ذلك المكان قبلنا، لا ميرداماد ولا ملا صدرا ولا ملا محسن فيض ولا القاضي سعيد القمي فقط، بل كذلك جميع أولئك الذين صنعوا الفكر الشيعي، جيلاً بعد جيل، مع كل ما يتفرد به من معان في تاريخ الانسان.

شيعية، إلا أن الزمن لم يمهله للأسف حتى يتمها<sup>(١)</sup>; كذلك كتب تفسيراً لعديد من سور القرآن الكريم<sup>(٢)</sup>، تحري فيه المعنى الباطني والمعنوي أو العرفاني للآيات؛ وهذا التفسير يمثل مع التفاسير الأخرى التي كتبها أسلافه وأخلاقه، منبعاً أساسياً للتفكير الفلسفي الإسلامي في التفسير المعنوي للقرآن. وسنرى بعد قليل لم يجب أن يكون الوضع هكذا، وبخاصة في التشيع.

أما المجموعة التي ضمنها ملا صدرا ثمرة جهوده وتحقيقاته وتأملاته جمِيعاً فكتاب شهير سماه «كتاب الأسفار الأربع العقلية»، وهو اثر نفيس ضخم يضم في طبعته الحجرية القديمة أكثر من ألف ورقة مطبوعة الوجهين، وهذا السفر هو الذي ولد على الأكثر اعجاب المريدين والمفسرين وانفعالهم وحبهم. ان شروح هذا الكتاب تؤلف مجموعة مجللة عظيمة تبدأ بشرح اثنين من أشهر تلامذته المباشرين كانوا في الوقت نفسه صهرين له ايضاً، هما ملا محسن فيض وعبد الرزاق اللاهيجي، وتستمر جيلاً بعد جيل حتى العصر الحاضر (مجتازة في القرن الماضي ملا عبد الله وملا علي الزنوزي، و حاجي ملا هادي السبزواري وسواهم) <sup>(٣)</sup>.

إن الموضوعات التي طرحتها الشيخ احمد الأحسائي والمدرسة الشیخیة لا يمكن فهمها دون معرفة آثار ملا صدرا معرفة كاملة؛ ولذا لم يفهم هذه الموضوعات أولئك الفقهاء الذين لا يحاولون الوصول الى مكان يصعب عليهم بلوغه (فيرأيي ان «کوبینو» هو أول شخص في العالم الغربي، بل ولمدة طويلة هو الشخص الوحيد، الذي عرّف هذه الفتاة الكبيرة من المفكرين في ملحق كتابه «تاریخ الادیان والفلسفات في آسیا المركزیة»، لذا يجب أن يُشفع اعجابهُ وحبه لأخطائه الصغيرة والكبيرة الناتجة عن نقصان المراجع لديه).

(١) أتيحت ملأ صدرا الفرصة لأن يشرح كتاب العقل وكتاب التوحيد فقط وبداية كتاب الحجة (الذى يضم تعاليم الأئمة بشأن مسألي النبوة والإمامية)، ومع انه لم يستطع ان يشرح أكثر من نحو العشر فقط من هذا الكتاب الاساسي في الفكر الشيعي، فان الطبعة الحجرية التي نشرت في طهران من هذا الكتاب، تضم أكثر من ٤٥٠ ورقة مليئة الوجهين.

(٢) طبعت مجموعة هذه التفاسير ضمن الطبعة الحجرية لتفسيره في شيراز سنة ١٣٢٢ (١٩٤٣). ولا يمكن أن نفصل عن هذا التفسير كتابيه الآخرين: مفاتيح الغيب (الذى طبع مع شرح اصول الكافي) وأسرار الآيات، وسنعود بعدها لمزيد الكتبين.

(٣) كتب ستة أو سبعة شروح على (المشاعر والحكمة العرشية)، وقد شرح حاجي ملا هادي السبزواري الشواهد الربوبية والاسفار بصورة مفصلة. راجع كذلك مقدمة السيد دانش بثروه على كسر الأصنام، ص ٢٣ فما بعد.

تلخص جميعاً في أربعة قواعد سنّها لكل من يريد أن يخوض في طرق المعنويات، هي:  
التخلّي عن حب اكتساب الثروة، ترك طلب الجاه الدنيوي، البعد عن التقليد الأعمى،  
واحتساب كل نوع من أنواع المعااصي<sup>(١)</sup>:

وَمَعَ مَا أَنْجَزَ مِلَادُ صَدْرًا مِنْ أَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ، اسْتَطَاعَ الْحَجَّ سَبْعَ مَرَاتٍ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ،  
وَفِي عُودَتِهِ مِنْ حِجَّتِهِ السَّابِقَةِ عَامَ ١٠٥٠ هـ وَافَتْهُ مَنِيَّتُهُ فِي الْبَصَرَةِ وَفِيهَا دُفْنَ.

## ۲- مبنی آثار ملا صدرا:

إن المؤلفات التي تجعل هذا المفكر العميق المثالي بحق، حاضراً بيننا مستمراً في حياتنا، جد عظيمة؛ وقد بلغ مجموعها تقريراً حتى القرن الأخير أربعين مجلداً بطبع حجري<sup>(٢)</sup>. بعض هذه الكتب يشتمل على مئة صفحة، وبعضها الآخر يضم مئات الأوراق، إن جميع موضوعات الفلسفة الإسلامية قد بحثت في هذه الكتابات، وإن بعض كتبه هي نتيجة بحوثه الشخصية الخالصة، كما أن بعضاً آخر منها تفاسير وشرح، إلا أن يوسع دائرة الشرح والتفسير في هذه الكتب ويضمنها من الآراء والتفاصيل المبتكرة ما يتضمنه نعدها أيضاً في ذمة آثاره الخاصة.

لقد شرح ملا صدرا رائعة ابن سينا «كتاب الشفاء»<sup>(٢)</sup>، وشرح أهم آثار السهروردي «حكمة الاشراق»<sup>(٣)</sup>; وفي شرحه لكتاب «أصول الكافي» - أحد كتب الشيعة الأساسية والذي يضم تعاليم أئمة الشيعة<sup>(٤)</sup> - شرع ملا صدرا في وضع مجموعة واقعية لفلسفة

<sup>1)</sup> راجع كسر أصنام الجاهلية، ص ١٣٣.

(٢) راجع فهرست المراجع التي ذكرها السيد جلال الدين الاشتياي في كتاب: ترجمة ملا صدرا وآراءه الفلسفية، ص: ٢١٠ - ٢٢٥.

(٣) طبع شرحه في المجلد الثاني من الطبعة الحجرية لكتاب الشفاء، طهران ١٣٠٣.

(٤) لقد طبعنا في الجزء الثاني من منشورات «المعهد الفرنسي الإيراني»، طهران ١٣٢١ (١٩٥٢م) متنًا منتحاً من كتاب حكمة الآشراق. كما ان السيد جلال الدين الآشتiani يعمل الآن في تصحيح حاشية ملا صدرا. راجع بشأن هذه الحاشية، مقالتنا:

## Le theme de la resurrection dans le Commentaire de M<sup>e</sup>olla Sadra Shirazi sur la Theosophie Orientale de Sohrawardi' Shaykh al-Ishraq.

(٥) طبع السيد محمد اخوندي مؤخراً كتاب الكليني الكبير طبعتين احداهما تضم المتن العربي صرفاً في ثمانية مجلدات (طهران ١٣٢٤ ش ١٩٥٥م) والثانية تضم المتن العربي مع ترجمة فارسية وشرح بالفارسية بقلم آية الله محمد باقر كمره اي ظهر منها منذ ١٣٤٠ش (١٩٦١م) حتى الآن (١٣٦٢ش ١٩٩٢م) حتي الان ثلاثة مجلدات.

وباختصار، يجب القول ان التحقيق العميق في وضع الشيعة الفلسفية دون معرفة لآثار ملا صدرا وأفكاره، أمر متذر، لأن لهذا لوضع من أوله إلى آخره ارتباطاً بتفكير ملا صدرا. ترى، أية إرادة عميقية كانت تحرك ملا صدرا طوال مدة حياته؟ إننا نستطيع أن نجد علائمها في مقدمة كتابه الكبير، تلك المجموعة التي تسمح لنا بأن نقول: إن ملا صدرا هو لايران قدس توماها الاكوني لو كان القديس توما يستطيع في الوقت نفسه أن يكون عارفاً وحكيمًا مثل ياكوب بوهمه، إلاً أن مثل هذا التركيب لا يمكن أن يتحقق إلا في ايران وحدها.

#### \* الانحداد بين التأمل النظري والشهود العرفاني عند ملا صدرا:

إن عبارة (الشيعي الجامع) تعلن للفيلسوف الباعث على صراع معنوي في جبهتين، الصراع الذي هو لأول وهلة مع نفسه، ثم وبالتالي صراعه مع القوى المظلمة لعالم خارجي عدو مناوئ. ولقد تحمل ملا صدرا الوجه الأول لهذا الصراع المعنوي في سنوات وحدته في قرية «كُهَك»، وفي هذا الصراع كان الموضوع الرئيسي للغاية من حياة ملا صدرا الخاصة والتطور الذي سينتهي به إليه قدره، واحتيازه التأمل النظري الفلسفى إلى اليقين التجريبى الذى يتذوقه العرفان، ففلسفة حقيقة واقعية لا يمكن أن تقوم ما لم يقم اتحاد بين هذين وما لم ينته التأمل النظري إلى يقين العارف. إن كلقصد من المعنوية الإشراقية لم يكن، منذ عهد السهروردي، إلاً هذا فقط، أما عند ملا صدرا - كما هو الحال عند أسلافه وعند اتباعه من بعده - فان هذا الاتحاد إنما يحدث بالفطرة فى المعنوية الشيعية. ومن الأفضل أن ندرس هذا الموضوع بدقة أكثر.

#### \* مفهوم الإشراق في الفلسفة الإيرانية:

ان كلمة (الإشراق) التي كان لها في الفلسفة الإيرانية تاريخ عجيب، استعملت في القرن الهجري السادس على يد السهروردي لبيان حكمة الإيرانيين القدماء التي كان يريد أن يحييها. ان الكلمة تعنى جلال طلوع الشمس، كما تعنى في الوقت نفسه النور الذي يضيء الأسحار، النور الذي تتلقاه الموجودات في تلك الدقائق من بياض الفجر. كذلك تعنى هذه الكلمة منطلق هذا النور ومبدأه، اي الشرق مكاناً وزماناً. والآن يجب نقل هذه

التصورات كلها الى عالم ما وراء المحسوسات، وان نفس المشرق بعالم النور، والموجودات النورانية، وضياء الفجر الذي يشرق من سلسلة العقول على نفوس الأفراد المبعدين في مغرب عالم الظلام. إن هذه الحكمة التي تتبع من مشرق الروح، والتي سميت شرقية وفقاً لهذه (الجغرافيا العرفانية) ليست فلسفة، وليس علم إلهيات (تيولوجي) بالمفهوم الذي تستعمل فيه هاتان الكلمتان اليوم في الغرب، حيث يرون فيهما طاقتين مختلفتين متمايزتين، وحيث يتناولون بالبحث ما بينهما من رابطة ليتمكن اتخاذ رأي ما لصالحة أحدهما.

إن هذه الحكمة المشرقة أو الإشراقية انما هي حكمة إلهية ترافق بدقة الكلمة اليونانية ثيوSophia، هذه الحكمة تقود اتباعها من علم الفلسفة الانتزاعي، الذي هو العلم بواسطة الصور أو المفاهيم، والذي هو العلم الصوري، إلى المشاهدة المباشرة والإشراق الحضوري الذي يطلع من مشرق الروح. هذا العلم الذي ليس بعد صوراً، بل علم حضوري، هو علم مشرقي، لأنه اشراقي، وعلم اشراقي لأنّه مشرقي. هذا هو المعنى العرفاني لكتامي مشرق ومشرقي حين يدور الحديث على حكمة الإشراق، وهذه الحكمة هي التي عنى زرادشت وحكماء ايران القدامى - كما يقول السهروردي - بتعليمها.

إن كلمة «الاشراقيين» تقابل في اصطلاح اليوم «المشائين» وترافق «الإفلاطونيين» أو «الإفلاطونيين الحديثين»، وتاريخ افلاطوني ایران الاسلامية الحديثين هؤلاء طويل. إن هؤلاء الحكماء مرتبطون بتلك الأسرة التي يرتبط بها الإفلاطونيون الحديثون في كل مكان وفي كل زمان. العلم الإشراقي أي العلم بتلك اللحظة التي يطلع فيها نور المشرق على الروح، أو مبدأ الروح، قبل ورودها على هذه النشأة الترابية، هو التجربة التي حظي بها ملا صدرا في وحدته المهيبة في «كُهَك».

يقول في مقدمة كتابه الكبير (الأسفار ص ٨): «حين بقيت مدة طويلة على هذا الحال من الاستقرار والانزواء والخمول والاعتزال، اشتعلت نفسي اثر المجاهدة الطويلة بالنور، وفاض على قلبي نتيجة الرياضيات الكثيرة التهاب قوي وأنوار ملوكية، وانحلت عقدة أسرار الجنبروت، وتبعتها الأنوار الأحديّة. لقد أحاطت به الألطاف الإلهية، ووقفت على أسرار ما كنت قد أدركتها بعد، وانكشفت لي رموز لم يستطع أي برهان حتى الآن أن يكشفها لي، بل ان ما كنت قد تعلّمته عن طريق البرهان، شاهدته الآن ورأيتها عياناً مع زوائد واضافات» (يجب

### \* السفر كمفهوم عرفاني:

أن يلاحظ أن الطريقة التي اتخذت لبيان هذه التجزئة المعنوية، تطبق تماماً على طريقة السهروردي وميرداماد؛ وان هذا التعيين اليقيني لا يستند إلى استدلال منطقي، بل ان منشأه الحضور المباشر الذي يُنْذَوِّق بصورة شخصية خاصة، وفي بعض الموارد بالمشاهدة).  
ويتابع ملا صدرا (ص٨): «لقد انبسط عقلي باعتبار جوارحه الظاهرة وغداً ماءً سيالاً يفيض، أما باعتبار باطن تعقلاته فقد انقضى اطلب الحقيقة وصار بحراً مواجاً. فصنفت عندي كتاباً إلهياً للسالكين العاملين على تحصيل الكمال، وجلوت الحكمة الربانية لطالبي أسرار حضرة ذي الجلال والاكرام».

### \* شيعية فكر ملا صدرا:

إنه لمن المستحيل أن يستطيع الإنسان في بعض كلمات أن يعرض أكثر من فكرة تصورية عامة عن هذه المجموعة التي أقام فيها ملا صدرا بناء مجللاً للفكر الإيراني. إننا إذا أردنا أن نحكم عليه بعين المؤرخ، فيجب بصورة عامة أن نقول دون شك إننا مع ملا صدرا أمام واحد من أتباع مدرسة ابن سينا. لقد كان يعرف آثار الشيخ الرئيس عن قرب، وقد شرحها، إلا أن ملا صدرا هو في الوقت نفسه فيلسوف سينائي مع التفسير الشعري متاثراً بأفكار السهروردي، تأثراً لا ينعدم فيه فقط كل ما بين ابن سينا والسهوردي من فاصلة وبعد، بل ان ملا صدرا نفسه تعبير مشخص عن الإلهيات الشرقية. كذلك تأثر هذا الفيلسوف السينائي الشعري تأثراً عميقاً بمعتقدات حكيم الأندلس الكبير، والعارف الذي هو من أكبر عرفاء التاريخ كله، محبي الدين ابن عربي (المتوفى ٦٣٨). وانه لمن الواجب في هذا الموضوع أن يجري في إيران تحقيق حول ما يمكن تسميته «التشيع السري» لابن عربي<sup>(١)</sup>، لأن في حل هذه المسألة أخيراً امكان الوصول إلى مفتاح جميع الموضوعات.

ان ملا صدرا هو أكثر من أي شيء مفكّرٌ شيعي متاثر تمام التأثير بتعاليم أئمة الشيعة عليهم السلام، ومؤمن بالاسلام بتصورته التي تتطرق من هذا الاساس. لذا، فإنه لمن العبث - مهما يكن الامر مستساغاً - أن نهتم بذكر «منابعه» إذا كان قد صدنا أن نحل جميع المسائل عن هذا الطريق. إننا نستطيع أن نسجل على ورقة كل الأقوال المرددة والاشارات والصور وكل ما نسميه «المنابع»، إلا أن حاصل هذه الأوراق جميعاً لن يكون قط ملا صدرا لو لم يكن هناك قبل كل شيء «ملا صدراً» ينظم هذه «المنابع» في بناء ليس سواه من يستطيع أن

(١) ان الموضوع الذي هو صعب الحل تعريف شخص خاتم الولاية الذي يرى الشيعة انه يستطيع أن يكون اماماً فقط، بينما يعده ابن عربي المسيح (ع). وقد بحث هذا الأمر بصورة مفصلة السيد حيدر الآملي - أحد أهم أتباع ابن عربي وشارحيه من الشيعة - في كتاب «جامع الأسرار» وفي شرحه للنصوص، حيث عدم الترابط في نظرية ابن عربي حول هذا الموضوع، إلا أن هذه المسألة تحتاج إلى تحقيقات أخرى. راجع تقريرنا في:

*Annuaire de l'Ecole des Hautes Etudes, Section des Sciences religieuses*

السنة ١٩٦٢ - ١٩٦٣، ومقالتنا عن السيد حيدر الآملي:

Haydar Amoli (VIII-XIV siecle) Theologien shi'ite de Soufisme.)

مجموعة المقالات التحقيقية الاستشرافية المهداة إلى البروفسور هنري ماسه. طهران ١٣٤٢ ش (١٩٦٣) ص ٧٢ -

.١٠١

إن هذا الكتاب هو مجموعة آثار ملا صدرا، وقد سماه «الأسفار العقلية الأربع». ماذا كان قصده من هذا العنوان؟ لقد أوضح هو نفسه هذا الأمر في ختام مقدمة الكتاب. إن هذا العنوان مستمد من المصطلحات العرفانية الإسلامية المتداولة. فالسفر الأول يبدأ من عالم الخلق وينتهي إلى الحق (من الخلق إلى الحق)؛ وفي هذا السفر يبحث تركيب الموجودات، والطبيعيات، والمادة والصورة والجوهر والعرض، ويرتقي السالك إلى مرتبة عالم الحقائق الإلهية غير المحسوسة. وبناءً على هذا فإن السفر الثاني هو من الحق (في الحق بالحق). وفي هذا السفر لا يبعد السالك عن مرحلة ما بعد الطبيعة، بل يتعرف إلى علم الإلهيات والمسائل المتعلقة بالذات والصفات الإلهية. أما السفر الثالث فهو رحلة فكرية ولكن في عكس السفر الأول، أي أنه عودة من (الحق إلى الخلق بالحق). إن هذا السفر يتبع مراتب صدور الموجودات عن أنوار الأنوار، ويعرف السالك إلى العلم بمراتب العقول والعالم الغيبية التي تحتل ما فوق عالم المحسوسات، ويبحث في علم التكوين والملائكة. وأخيراً فالسفر يتم بواسطة الله في العالم المخلوق نفسه (بالحق في الخلق)، ويدور حول معرفة النفس أو الضمير الداخلي (العلم المشرقي) وحول التوحيد بمعنى الباطني، أي وحدة الوجود بمعنى (من عرف نفسه فقد عرف ربها)، وكذلك حول مسألة المعاد، أي جميع العوالم الامتاهية التي تكشف للإنسان بانفتاح باب الموت أمامه<sup>(١)</sup>.

(١) الأسفار طبعة العلامة الطباطبائي، المجلد الأول ص ١٣ فما بعد، مع تحقيق حاجي ملا هادي السبزواري الوارد في حواشي الصفحات ١٣ حتى ١٨.

يقيميه ويعليه. ان محور هذا البناء هو عقائد أئمة الشيعة عليهم السلام كما هو الحال في «أصول الكافي» للكليني، ومن هنا ان ملا صدرا ينتقل الى صراعه المعنوي الآخر، الصراع ضد اللادارين المقدسين والقشريين، وأولئك الذين كان لهم من الدين تعبير ظاهري فقط، ان نوايا ملا صدرا ومقداصه الصريحة عنون على فهم الوضع الفلسفى للتشيع، وكذلك على إدراك أهمية آثار ملا صدرا في الفكر الشيعي في الأيام السالفة وفي العهد الحاضر.

### ٣- المفكر الشيعي:

ما هو الفكر الشيعي في نظر العرفاء، أي أولئك الذين ليسوا فقط يعترفون بما سمي العرفان الشيعي، بل ويررون التشيع - أي تعاليم الأئمة عليهم السلام - أساس العرفان والوجه الباطني للإسلام أو الإسلام الجامع، وكذلك الإسلام الحقيقي والمعنى؟ يجب القول أولاً: أن هذا الموضوع لا يزال حتى الآن ولأسباب عديدة أمراً مجهولاً عند مؤرخي الأديان. ان عقيدة الشيعة في نظر العرفاء هي التمييز بين الشريعة، أي وجه الدين الظاهري، وبين الحقيقة، أي الناحية المعنوية والعرفانية للوحي، التمييز بين الوجهين الخارجي والداخلي، أو بين الصورة والمعنى، وهو التمييز الذي ينطلق من التمييز بين النبوة والولاية. ان الكل متقوون على الأسباب والعلل الموجبة لظهور الأنبياء، هذه الموجودات فوق البشرية التي جعلها الإلهام الإلهي واسطة بين الذات الأحادية الخفية غير القابلة لأن تعرف، وبين الجهل أو عجز البشر. هناك ستة أنبياء ظهرروا ممن كانوا مكلفين بأن يأتوا البشرية بناموس إلهي أو شريعة، وهؤلاء الأنبياء هم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ الذي يمثل كل منهم مرحلة تتشكل من مجموعها دائرة النبوة، وان النبي صلوات الله عليه هو خاتم هؤلاء الأنبياء، ولن يأتي بعده النبي يحمل للبشر شريعة جديدة.

ان نظرية الشيعة - وهي النظرية التي يبدأ ظهورها التاريخي لا في صحابة النبي الادنين فقط، بل في أقوال الرسول الأكرم ﷺ بشأن من كان أقرب الكل اليه، أي علي بن أبي طالب عليه السلام - نظرية الشيعة هذه تمثل الوجه الحزين لهذا الوضع، لأن التشيع يطرح هذا السؤال: ان الانسان كان دائماً في سبيل خلاصه واتصاله بمبدأه محتاجاً للأنبياء، والآن وقد ظهر آخرنبي ولن يُبعث بعدَّ أي رسول فكيف يتصرف هذا الانسان؟ كذلك يطرح هذا السؤال الذي يضارع السابق أهمية: ان الكتاب السماوي الذي ينزل على النبي

ما، ليس كتاباً عادياً تحصر أهميته - كالكتب الأخرى - في معناه الظاهري وفي مدلول الفاظه الموضوعية، أو يمكن الوقوف على كل ما فيه من معنى عن طريق علوم اللغة والمعاني والبيان أو عن طريق الجدل والمنطق؛ العكس هو الصحيح، فكتاب سماوي ما، كتاب ذو اعمق خفية، لا يمكن، بالاستناد الى القياس، ادراك المعنى السري لمنته وكلامه الإلهي. إن هذا المعنى يستطيع «أولئك الذين يعلمون» فقط، أن ينقلوه الى أولئك المجبرين على قبول هذا الشاهد المعنوي.

وما كانت واقعية الوحي القرآني الجامعة ظاهرة وباطنة معاً، فيجب أن يكون ثمة بعد النبي شخص يكون «قيم القرآن»، ويستطيع أن يرشد الأشخاص الى العلم الجامع في الكتاب السماوي. هذه تعاليم الأئمة عليهم السلام، وملا صدرا يشرحها فقط. انه يؤمن - استناداً الى إلهيات الشيعة - أنه تبدأ بعد دائرة النبوة دائرة الولاية، أو يمكن القول بطور أدق: إن النبوة التي انتهت هي نبوة تشريعية، نبوةنبي أتى بشريعة، إلا أن نبوة جديدة تحت اسم جديد هو (الولاية) لا تزال مستمرة، نبوة غير تشريعية، ولكن أبداً ترتبط بالحقائق الداخلية الخفية، وتدعى النبوة الباطنية، هذه النبوة كانت موجودة منذ بداية البشرية، وستستمر حتى ظهور قائم القيامة.

أما القاعدة الحكمية لهذه العقيدة فيمكن أن نجدتها في «الحقيقة المحمدية» أو «حقيقة النبوة الأبدية» التي هي ذات وجهين، ولها بسبب هذا نوعان من الظهور: الوجه الظاهري الذي يظهر في شخصية النبي الشارع، والوجه الباطني الذي يظهر في شخص الامام. ويمكن القول بصورة عامة: إن المعصومين الأربع عشر، اي النبي والسيدة فاطمة عليها السلام ابنته والأئمة الاثني عشر عليهم السلام، هم أشعية نور النبوة الأحادية. وبناءً على هذا، فالائمة الاثنا عشر هم بالذات واحد، وشخصيتهم النورانية قد ظهرت منذ الأزل. لقد كان هؤلاء الأئمة في حيواتهم الدنيوية (قيمي الكتاب)، وكانوا يرشدون مریديهم الى فهم المعنى الجامع والباطني لكتاب السماوي (تشكل تعاليمهم في هذا المضمار مجموعة عظيمة تشمل مجلدات ضخمة الحجم).

وكما أن كمال النبوة التشريعية يجب أن يتجلّى في وجود من هو على الأرض خاتم الأنبياء، فإن كمال الولاية التي هي باطن النبوة يجب أن يظهر في خاتم الولاية، في شخص الامام الأول كولي عام ولاية مشتركة في جميع أدوار النبوة، وفي شخص الامام الثاني

يقول ولا يقول، إلا أنه ليس استعارة نفهمها ونحلها مرة واحدة إلى الأبد. إن السؤال الذي يجب أن يطرح أولاً هو التالي: هل يؤمن الإنسان أن للوحي السماوي معانٍ داخلية، وإن هناك وبالتالي إسلاماً باطنياً يُرشد وبهدي إليه الأئمة عليهم السلام، أو أن هذه العقيدة - على العكس - تهمل من زاوية مذهب ظاهري تشريعي وتعد مستتركة؟ إن الفلسفة في الحالة الأولى تجد نفسها في وطنها، ولكنها تتخذ صورة فلسفية مبنية على الوحي؛ أما في الحالة الثانية فلا يمكن الحديث عن الفلسفة. إلا أن الوضع المعقد المحزن الذي واجهه ملا صدرا وكثير من المفكرين قبله وبعده - كالمسيح حيدر الآملي مثلاً الذي كان يعيش قبله بثلاثة قرون - هو أن هؤلاء المفكرين كانوا عرضة للحملات والتهم من قبل أشخاص كانوا يسمون مثلكم شيعة. طبعاً إن هذا التناقض هو في الحقيقة ظاهري فقط، لأن هؤلاء الأشخاص وإن تسموا بالشيعة، إلا أنهم خفيت عليهم الأصول الرئيسية للتبيّن، أعني مبدأ الاتحاد بين الظاهر والباطن اتحاداً غير قابل للانحلال، واحتلت في أذهانهم القواعد الشيعية بمعتقدات أخرى.

إن هذا الوضع المؤسف الذي كان السبب الأصلي لأن ينفي ملا صدرا نفسه نفياً اختيارياً في كهك بعيداً عن القبيل والقال وعن تهم المتعصبين القشريين الذين يرون إلى الظاهر فقط، قد خلف أثره المليء بالألم في كل مؤلفاته وأثاره. إنه مثلاً في مقدمة كتابه «الأسفار»<sup>(١)</sup> يحكم على الجهلة الذين «لم يرتقي فكرهم عن هذه الهياكل المظلمة ودياجيرها» أن هؤلاء الأشخاص في عدائهم للعرفان والفلسفه اللذين لم يفهموهما ينفون حتى أي نوع من أنواع فلسفة العلوم الدينية القديمة، رغم أن هذا يؤدي إلى أن لا يُفهم شيء من الأسرار الإلهية التي شرحها الأنبياء بصور من الرمز والتمثيل. إنهم يقولون: إن فلاسفة العرفان سقطوا في شبكة اوهامهم الإلهية. وفي رسالته «الأصول الثلاثة» (سـه اصل) يخاطب ملا صدرا أحد هؤلاء الجهلة بحرارة مجللة قوية قائلاً:

«ألا تفكـرـ انـ مـنـ المـكـنـ أـنـ يـكـونـ ثـمـةـ مـغـرـرـ بـالـلـهـ مـثـلـكـ؟ لوـ كـانـ كـلـ عـلـمـ كـمـاـ قـدـ عـلـمـتـ أوـ كـانـ يـجـبـ أـنـ يـؤـخـذـ عـنـ طـرـيقـ النـقـلـ وـالـمـشـيخـةـ، فـلـمـ يـذـمـ الـحـقـ تـعـالـىـ فـيـ عـدـةـ موـاضـعـ مـنـ الـقـرـآنـ أـوـ لـئـكـ الـذـيـنـ يـقـلـدـونـ مـشـايـخـهـ وـآـبـاءـهـ فـيـ الـمـعـقـدـاتـ وـيـعـوـلـونـ عـلـيـهـمـ فـيـ الـأـصـولـ»

(١) الأسفار، الطبعة المتقدم ذكرها، ص٦.

عشر كخاتم للولاية المحمدية. إلا أن الإمام الثاني عشر الذي هو حاضر الآن وفي الزمان الماضي، والذي سيكشف ظهوره المعنى الباطني لكل الوحي السماوي منذ بداية الحياة البشرية على الكره الأرضية حتى اليوم، لا يُرى في الوقت الحاضر. إن الفترة الزمنية التي نعيش فيها، هي فترة غيابه، وما دام البشر غير قادرين على رؤيته فإن هذه الفترة ستظل مستمرة. لا شك في أن التشريع كان قد قدر مقدماً وتصور أعمق تطورات البشرية، تماماً كما قدرها وتصورها الزردشتيون في شخصية سائوشيان؛ والبوذيون في شخصية بوذا المستقبل أو بوذا مايتريا Maitreya والمسيحية المعنوية منذ بداية نهضة اليواخيميين Joachimites في القرن الثالث عشر في انتظار عهد حكومة الروح القدس.

#### \* استمرارية الفلسفة في إيران:

ومهما يكن هذا الموضوع مبحثاً بحثاً بصورة سريعة، فإنه يبين لنا أن الفلسفة والمعنى الإسلاميتين ليستا محدودتين بتلك الفئات الثلاث فقط التي تملأ اليوم الفصل الذي تخصصه تواريخ الفلسفة في العالم الغربي للفلسفة الإسلامية، أعني تلك الفئة التي اطلقوا عليها اسم الفلسفة مستمددين اسمهم من سلوكهم اليوناني، والمتكلمين الذين هم جدلوا علم الكلام من السنة، وأخيراً المتصوفة. إننا نعلم الآن أنه كانت ثمة مدراس أخرى، ونستطيع بصورة خاصة أن نقدر لم أحبيت الفلسفة بصورة مجللة رفيعة في إيران والعالم الشيعي خلال العهد الصوفي، بينما يسود الاعتقاد كل مكان في العالم الإسلامي أن التطور الفلسفـي انتهى مع ابن رشد في القرن الهجري السادس. إن محققاً يوفق إلى أن يجد طريقاً إلى قلب الفكر الشيعي، سينكشف أمام عينيه أفق جديد، أفق لا شك في أن طرح مسألة وضع الفلسفة في الإسلام وارتباط الفلسفة بالمعتقدات الإسلامية خارج نطاقه وبمعزل عنه، خطأ فادح.

#### \* الشيرازي والفلسفة المبنية على الوحي:

إننا نحسن الآن، وحيث يجب الانتقال من الظاهر إلى الباطن، أن جميع الأمور الخارجية المحسوسة، تنقلب إلى الرمز والتمثيل، ويتوقد الفكر وينبعث حتى يتجاوز نفسه كل لحظة ليرتقي ويتقدم في ليل عالم الرمز والتمثيل المظلم، لأن الرمز سكت، سكت

طباً ولا نجوماً ولا هندسة ولا طبيعيات. ان ما شرحته مفسرو الوجه الظاهري من امثال الزمخشري وسواه، ليس هو - اطلاقاً - علم القرآن الحقيقى ومعرفة الوحي الإلهي معرفة حقيقية. ان علم القرآن الحقيقى أمر آخر<sup>(١)</sup> هو الذي يجعل الفلسفة فلسفه مبنية على الوحي.

### \* التوافق بين الوحي والفلسفة:

ولكي يُري ملا صدرا الصراط المستقيم، الذي هو بعيد بالمقدار نفسه عن التعبير الظاهري لوجه الشريعة، وعن الأسلوب النافي للفلسفة الاستدلالية الصرف، يفسر حالة التفكير الفلسفى في مقدمة شرحه لكتاب الثالث من اصول الكافى للكلبى (كتاب الحجة، في الإمام والامامة)<sup>(٢)</sup> كما يلى: ان الوحي القرانى نور تمكן به الرؤية مع هذا النور إذا لم ترفع تعاليم الأئمة غطاء اللفظ الظاهري الذي يجعل هذا النور مستوراً. ان التفكير الفلسفى عين تشاهد النور وتراه؛ ولكي يتحقق فعل الرؤية فالنور ضرورة لازمة، لكن من الواجب كذلك وجود عين يمكنها أن تنظر. فإذا حجبنا هذا النور فلن ترى العين شيئاً بعد، وإذا تعمدنا أيضاً إغماض العين - كما هو حال القشريين والناظررين إلى الظاهر فقط - فكذلك لن يُرى بعده أي شيء، بل ان الظلمة ستكون المنتصرة في الحالين، وما حال ذى العين الواحدة كذلك أفضل بكثير.

أما على العكس من ذلك، إذا اتحد التعقل الفلسفى مع الوحي السماوى، فإن ذلك سيكون نوراً على نور، كما تقول آية النور المباركة، وجملات هذه الآية بمعناها الباطنى اشاره كما نعلم للمعصومين الأربع عشر. لذا يقول ملا صدرا ان التشيع وحده هو الذي يستطيع في الاسلام أن يقيم هذا التوافق والانسجام بين الوحي الإلهي والتعقل الفلسفى، لأن التشيع يأخذ العلم والحكمة عارية من مشكاة النبوة والولاية، ولأن الفلسفة الشيعية فلسفه مبنية في الأساس على الوحي.

اننا لا نشبه هذا الوضع بصورة عابرة بأوضاع كانت في أواسط اخرى. لا ضرورة هنا

الدينية؛ لئن كان يجب في كل علم أن يُتعلم بالطريق المتعارف عن استاذ، فمن أي معلم بشري بالطريق المعهود تلقى أمير المؤمنين عليه السلام ما أثر عنه من علمه بقوله: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»<sup>(٣)</sup>.

إذاً فملا صدرا يذكر المتن نفسه الذي ذكره السيد حيدر الاملي منذ ثلاثة قرون<sup>(٤)</sup>.

والعرفاء يعتقدون المعنى الذي تتضمنه أبيات للامام الرابع زين العابدين عليه السلام (المتوفى سنة ٨٩٥) يقول فيها ما يضمونه: «أنتي أخفي جواهر علمي خشية أن يرى الحقيقة جاهل فيرسينا بقدمه.. يا رب، لو كنت أظهرت واحدة من لآلئ معرفتي، لكانوا قالوا لي: إنك لعابد صنم، ولوجد مسلمون يجذبون اهراق دمي، فما يعرض لهم من أجمل الحقائق الإنسانية يعدونه منفراً مقيناً».

والآن يتساءل ملا صدرا: ما هو هذا العلم الذي يتحدث عنه الامام في أبياته الحزينة، هذا العلم الرفيع الذي يعلو مدارك العامة ويجعل الانسان في عين المسلم العادى كافراً وعابداً صنماً؛ ان الجواب على هذا السؤال بسيط، ونجده في خطبة القاها في جمع بالقرب من مكة واحدٌ من أشهر صحابة الرسول ﷺ هو عبد الله بن عباس وقال فيها: «لو نقلت لكم ما أعلم من تفسير قول الله عز وجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتزل الأمر بينهن) لرجتموني بالحجارة»<sup>(٥)</sup>.

إذاً فمن توافقه العناية الإلهية لدرراك الأسرار الخفية في الرسالة النبوية معرض لخطر الرجم من قبل الجهلة الغاضبين. ترى، هل ثمة حاجة لتعقب أكثر في تحري علة هذا الوضع المختل المؤسف ومعرفة أسراره؟ هل ثمة تعليل آخر لأن أئمة الشيعة عليهم السلام لم يكن حولهم قط اكثر من جمع قليل يعد على الأصابع من الأفذاذ والخلص؟

فبناءً على هذا، ليس من الصعب على ملا صدرا أن يوضح ان هذا العلم الذي يجعل الانسان حذراً وعلى خوف من عداوة الناس وحتى عداوة العلماء القشريين، ليس جدلاً ولا

(١) رسالة الأصول الثلاثة، طبع الدكتور السيد حسين نصر، بند ١٢٠، ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) راجع بشأن هذا المتن الذي ذكره السيد حيدر الاملي مقالتنا:

Le Combat spirituel du Shi'isme Errons - Zahrbuel, XXX Zurich.

(٣) رسالة الأصول الثلاثة، البند ١٢١، ص ٨٣. راجع بشأن الاستاذ الى هذا المتن نقاً عن السيد الاملي Combat Spirituel ص ١٣ وما بعدها.

يجعل المعنوية الاشرافية في شرح أصول الكافي<sup>(١)</sup> بربحاً بين طريقة الصوفيين المحسن الذين يهتمون بتهذيب الباطن، وطريقة الفلسفه الذين يميلون الى العلم الصرف، بربحاً يتوسط الطريقتين ويصل ما بينهما، وهذا الوضع يوضح السبب في ان ملا صدرا يلوم بعنف وخسونة بعض الصوفية الذين يعدون الفعالية العقلانية شيئاً هباءً، هؤلاء العمى في تحقر الفلسفه عمى أعدائهم الجهلة القشريين. ان ملا صدرا يمثل في الواقع نوعاً من المعنوية الشيعية التي مع استعمال لغة التصوف الفنية لا ترتبط بأية طريقة صوفية، لأن العرفان الشيعي نفسه يؤلف طريقة، والرابطة الداخلية مع الأئمه عليهم السلام نفسها مقدمة لدخول مرحلة السير والسلوك.

## ٤ - فلسفة المعاد: \* أصلية الوجود:

من هنا يمكننا الوقوف مرة أخرى على مجموعة الموضوعات الأساسية التي تميز تفكير ملا صدرا، وان ندرك حدود بنائه. من الواجب (في هذه الحالة) أن نقيّد أنفسنا ونحدّها بجموعة موضوعات؛ أولها موضوع يقلب فلسفة أصلية الماهية التي كانت رائجة منذ عصر الفارابي وابن سينا. فقد كان الرأي مستقرًا في ما سبق على أن الماهية أمر ثابت دون أن يحمل فعل الوجود معنى التحقيق، لأن وجود شيء ما ليس إلاً ماهيته، ولا يضيف على الماهية أي شيء، لأنه ليس مُظهراً الماهية. ولقد قلب ملا صدرا هذه النظرية، وهذا ما سمح له في شرحة للسهروردي ان يعبر عن الحكمه الاشرافية تعبيراً «وجودياً».

(١) شرح أصول الكافي، ص ٤٤٦، بعد أن يشرح ملا صدرا شرحاً مفصلاً مسألة المعرفة في نظر أئمّة الشيعة عليهم السلام وبين مراتب الالهام المختلفة، يشرع في تفصيل طرق الصوفية ويقول: «وأما أهل النظر والاعتبار فلا ينكرون وجود هذا الطريق وأمكان الوصول من خلاله إلى الهدف في الموارد النادرة، لأن أكثر أحوال الأنبياء عليهم السلام كانت عن هذا الطريق، إلا أنهم يرون الأمر متعدراً خارج هذه الموارد، لأن نتيجته تتحقق ببطء، كما ان اجتماع شرائطه مستبعد...».

ثم يقول ملا صدرا ختاماً: «إن السالك إلى الله يمرّج بين طريقتين، إلا لا يكون صفاءً الباطني خلوًّا من التفكير، ولا يكون فكره مجرداً من الصفاء، بل تكون طريقته بربحاً بين الطريقتين، كما هي طريقة الحكماء الاشرافيين وأسلوبهم».

هذا المعتقد تكرار للرأي الذي ذكره السهروردي في مقدمة «حكمة الاشراف». راجع طبعتنا لهذا الكتاب في: Weuvres Philosophiques et Mystiques de Sohrawardi طهران ١٣٢١ (١٩٥٢)، ص ١٠ - ١٣.

(أي في التشيع) لاجتياز العقبة المتمثلة في الاختلاف بين الحقائق التاريخية الممكنة الواقعة والحقائق العقلانية الواجبة؛ كذلك يطرح هنا هذا السؤال: كيف تكون الحقيقة تاريخية وكيف يكون التاريخ حقيقةً (هذه مسألة «الاعتقاد والمعرفة» التي واجهها جميع فلاسفة المسيحية من اريجن حتى لاينيتر وهيل): كما أن التشيع لم يعرف المقارنة والتباين بين حقائق المعتقدات الدينية التي تعرفها كنيسة من الكائنات والحقائق الفلسفية التي هي نتاج جهد شخصي، بل ان نور الكتاب السماوي الذي يتجلّى بفضل هداية الأئمة وارشادهم يشع مباشرةً وبدون أية واسطة على المشاهدة الداخلية للمؤمن. ان الفلسفه والكلام (التيولوجيا) لا يتقابلان هنا في صفين متضادين كقوتين عظيمتين كانتا قد تشكلتا قبلًا، قوتين تولد احداهما من الفرد، وتتبع الأخرى من الكنيسة.

لقد عدّ مفكرونا الشرقيون هذا الموجود النوراني السماوي الذي سماه الفلاسفة العقل الفعال (نوس بويتيكوس nous - poietikos عند اليونانيين) هذا العقل السماوي الذي هو منشأ معرفتنا عدوه والروح القدس شيئاً واحداً. ان هذا الأمر لا يؤدي فقط إلى اعطاء الروح وجهاً استدلاليًا، بل ينتهي إلى أن يُعَدُّ ملِكُ العلم ومملِكُ الوحي شيئاً واحداً<sup>(١)</sup>، ولذا يبعد هذا الرأي كثيراً عن عقيدة «الحقائقين» التي ظهرت في المدرسة الابن رشدية اللاتينية. في الفلسفه «الشرقية» يتحد النوران ويتداخلان، ومن امتزاجهما تتولد الحكمة الإلهية، الحكمة التي هي علم لدني، وقد كان أئمّة الشيعة أول من وضع لها اسم: المعرفة القلبية. ان التشيع وبخاصة التشيع الجامع، هو في نظر ملا صدرا هذه الحكمة نفسها.

والآن نستطيع أن نفهم لمَ أن هذا المفكر الذي كان العرفان الشيعي قاعدته وأساس تفكيره هو بصورة عفوية اشرافي أيضًا. ماذا كانت في الواقع تعليمات السهروردي؟ كانت ان تجربة عرفانية دون قاعدة فلسفية سابقة لا تخلي من خطر الانتهاء إلى الخطأ؛ وعلى العكس من ذلك الفلسفه التي لا تسعى ولا تنتهي إلى كشف معنوي شخصي فانها، كما ذكرنا قبلًا، ليست اكثراً من عبث عقيم؛ ولذا نرى ان كتاب السهروردي الكبير «حكمة الاشراف» يبدأ بإصلاح المنطق وينتهي بنوع من «لحظة وجد وسرور». ان ملا صدرا بدوره

(١) فليراجع شرح أول حديث، الفصل الثاني من كتاب الحجة (في طبقات الرسل والأنبياء والأئمة) شرح أصول الكافي، ص ٤٤٥ فما بعد.

تقوم فلسفة ملا صدرا الوجودية على أن لا ماهية تقدم على الوجود، بل ان وجود شيء ما هو ما يعيّن ماهيته<sup>(١)</sup>؛ وان الشيء يستطيع بسبب وجوده أن يكون هو، اي تحول ماهيته من القوة الى الفعل. طبعاً يجب أن لا نعد ملا صدرا واحداً من فلاسفة «أصالة الوجود» أو «اكزيسنسلستي» عصرنا الحاضر. ان هذه المقايسة لا تعدو أن تكون مهزلة. ان ما يريد صدر الدين أن يقوله هو: أنه بما أن وجود شيء ما هو الذي يعيّن ماهيته، فماهية شيء ما ليست فقط شيئاً غير ثابت، بل أنها - استناداً إلى فعل وجودي - تستطيع أن تجتاز مراتب الشدة والضعف، التي لا يمكن عملياً تعدادها. إذاً فنحن لا نواجه في فلسفة ملا صدرا ماهيات ثابتة كما رأينا عند الفلسفه السابقين، بل إننا نواجه تحركاً وجودياً (عقيدة الحركة الجوهرية المعروفة) تجتاز الماهية طبقاً له سلسلة من التبدلات الوجودية، وكلُّ من هذه المراتب مرتبة من عالم الوجود.

مثلاً يمكن أخذ مفهوم الجسم. لا يجب لادرال ماهية الجسم أن نجد فعل الوجود بالعالم الجسماني فقط، الممكن إدراكه عن طريق الحواس الخارجية. يجب أن نبدأ مفهوم الجسم من العنصر البسيط (بمعنى الطبيعتيات القديمة حيث يكون للعنصر طبقاً لها معنى كيفي لا كمي) وأن تتبعه في التبدلات المتتالية التي تنتقل به من مرتبة الجماد الى النبات فالحيوان ثم الجسم الحي فالناطق قادر على فهم الحقائق المعنوية. ان هناك حركة وجودية عظيمة، من أعماق الجماد، حتى الظهور الأرضي للإنسان، ثم ما وراء هذه الصورة وبالتالي، لأن الوجود الإنساني في وضعه الوجودي في هذا العالم لا يزال وجوداً برزخاً.

لذا يجب ألا يقع التباس أو اشتباه، بل يجب الانتباه الى أن نظرية ملا صدرا قد علت نظرية التطور التي غدت اليوم في أوروبا بمثابة عقيدة دينية، ووجّهت وجهة أخرى غير وجهتها؛ ذلك أن كل شيء في نظرية التطور يقع في جهة مستقيمة أفقية وفي مرتبة وجود واحدة. ان الحديث يرد من هذه الناحية أو تلك عن «معنى التاريخ»، وينسى كثير من الناس ان عليهم اذا ارادوا التحدث عن مثل هذا الموضوع أن يُعدوا المقدمات لعالمِ معاد. إن حركة العالم في نظرية ملا صدرا وجميع أمثاله من المفكرين، ليست حركة عالم في حال التطور (بمعنى الجديد)، بل هي حركة عالم في حال الصعود والارتقاء. ان الماضي ليس وراءنا، بل

(١) ان كتاب المشاعر (الذى سبقت الاشارة اليه) متعلق في الأصل باثباتات أصالة الوجود مقابل الماهية.

تحت أقدامنا. ان اتجاه هذا العالم اتجاهًا عمودياً يمكن القول بمشابهته للأسلوب الكوطي في البناء، يتافق مع مفهوم المبدأ والمعاد الذي بواسطته يسخر عالم ما وراء التاريخ عالمنا. حين تصل حركة الوجود الصعودية الى صورة الانسان الأرضي يبدأ عهد جديد في التبدلات الوجودية، لأن الانسان عتبة منها يتحقق صعود العالم لأي مراتب أرفع للوجود وصور أعلى. ان الوجود الانساني منذ هذا الوقت هو - على الأقل بالقوة - في عدة عوالم، لأن الانسان مؤلف من حقيقة مثلثة: جسم ونفس وروح أو عقل، هي نفسها حقيقة معرفة الانسان المثلثة في العرفان القديم: سوما Soma بسيكه psyche بنوما pneuma، وثمة كذلك ثلاثة أنواع من الانسان: إنسان طبيعي وانسان نفساني وانسان عقلاني أو روحي، ويتوافق كلاً من هذه المراتب الانسانية تلطف تدريجي في مقام الجسم ومفهومه، وهناك أيضاً جسم مادي، وجسم نفساني، وجسم معنوي أو روحي. ان كلاً من الجسمين الآخرين مظهر لبعثة أو معاد في المستقبل يختار الانسان نوعه في حياته النفسية على الأرض، ويحدد بنفسه إن كان أهلاً لحياة أفضل، أو أنه سيُغلب ويسقط في أعمق نفسه<sup>(٢)</sup>.

ان من الواجب الانتباه بتطور عابر الى المصادر النظرية لهذه الحكمة الإلهية. ان هذه الحكمة، بالامتناع عن تحديد الماهية بالمقولات الثابتة غير القابلة للتغير، تولد مفهوماً للمادة يختلف تماماً عما يسمى مادة، على الأقل في اصطلاح اليوم، لأن المادة في حكمة ملا صدرا مادة أولية هي في نفسها مادة روحانية. اننا نعلم أن هذا المفهوم للمادة مستمد في الفلسفة الإسلامية من الكتابات المنسوبة الى انباذقلس التي استعملت قبلاً في موارد عديدة في حكمة ابن عربي. ان هذا التفكير يجعل حكمة ملا صدرا متوافقة مع نظرية معاصريه من فلاسفة كمبريدج الافتلاطونيين فهنري مور Henry More<sup>(٣)</sup>، كذلك يتحدث (بيان: البعد الرابع) عن «الترانيم الروحاني» Spissitudo Spiritualis، كذلك يتحدث

(١) راجع بشأن ارتقاء الجسم وصعوده هذا شرح أصول الكافي، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ في شرح مبسط بعنوان «تحقيق عرضي وتمهيد مشرقي»، وراجع كذلك مقالتنا:

Le theme de la resurrection dans le Commentaire de Molla Sadra Shirazi sur la Theosophie Orientale de Sohrawardi' Shaykh al-Ishraq.

الفصل الخامس: (La triple croissance de l'homme).

(٢) راجع كتابنا: Terre celeste et corps de resurrection de l'Iran Mazdeen a Iran shi'ite, paris, 1961, p275.

اليقين في حقيقة الكشف وشهود العرفاء، وبواسطة هذا العالم يستطيع أخيراً أن يدرك مسألة المعاد الجسماني، هذه المسألة التي لا يمكن تصورها إلا إذا كان في اليد مفهوم دقيق للجسم اللطيف، وهذا هو السبب في أن ملا صدرا قد انتقد بشأن هذا الأمر الأساسي، كلاماً من الغزالي المتكلم وابن سينا الفيلسوف<sup>(١)</sup>.

ان فلسفة ملا صدرا، وكل الفكر الشيعي، تستلهم مبدأها من البحث في المعاد، وهذه الفلسفة تتجلّى كفلسفة مبنية على الوحي تجعل في يد الإنسان ان يختار مستقبله بنفسه. وعلىي أن أعترف أن مما يحير ان الإنسان يشاهد اليوم في أوروبا نجاحاً لا يخلو من ضجيج في اقامة بناء كلامي وفلسي مجمل يقوم على أساس من العلوم والصناعات الجديدة، ويدعى أنه يفتح للإنسان «أبعاده العالمية»، بينما هو تماماً «غير إنساني»، لذا يمكن لحكيم من مدرسة دينية أن يقول في هذا البناء منصفاً كل الالتفاف انه «إلهيات غلبت على أمرها بالمجهر والمنظار والآلة ونتائجها الفلسفية والاجتماعية»<sup>(٢)</sup>.

أما فيرأى ملا صدرا وجميع أتباعه فإنه، على العكس، لا يمكن التحدث عن «الأبعاد العالمية» للإنسان إذ اعتمد على التجربة الحسية وعلى الإنسان الجسماني فقط. إن «الأبعاد العالمية» للإنسان تستمد معناها من ارتباطه بالعالم العليا واحيائه في هذه العالم. ان من الواجب أن يوضع يوماً كتاب في فلسفة المعاد خاصة عند ملا صدرا. ان بناء الإنسان المثلث الذي يشمل الجسم والنفس والروح يجب أن ينشأ ويرتقي ثلاث مرات على الأقل، إحداها حين يخرج الإنسان من هذا العالم، هذا الخروج الذي نسميه الموت. هنا تُحيا الروح في عالم البرزخ مع جسم لطيف نفسي وروحي يُسمى الجسم المكتسب وهو يرتبط بوجود النفس وأفعالها وتحركاتها وأميالها، ويتبعها في عالم البرزخ. هذه

(١) راجع الحواشي (٦١٢٣ - ٦١٦ - وفق ترقيمنا العام) على البند ٢٤٤ من حكمة الاشراق (القسم الثاني، الكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ٢٢٩ من طبعتنا، وص ٤٠٩ فيما بعد من طبعة طهران الحجرية، ١٣١٢) وتحقيقينا le monde de l'Imagination spirituelle et le corps de resurrection theme de resurrection..

بالجسم الهرقلياني في مدرسة الشيشية. راجع: Terre celeste.

(٢) فريد هوف شونان، ص ٣٩، الحاشياتان ٢ و ١٩٦١: Fritthjof schwon, comprendre l'Islam، Paris، ١٩٦١: Teilhard de Chardin. هذا الكتاب نفسه يضيف ان نظريات تايلارد دو شارдан هي «سقطة نايلارد دو شاردان». كان يمكن تداركها لو كان ثمة قدر ضئيل جداً من المعرفة العقلانية المستقيمة عن الحقائق المجردة البريئة من المادة».

في القرن الثامن عشر حكيم ألمانيا الكبير فريديريك اوتينcker Friedrich Oettinger الذي كان من تلامذة بوهمه Boehme وسويدنبورغ Swedenborg عن «جسمانية الروح» Geist leiblich Keit والجسم، أو الفكر والامتداد، شوية متضادة غير قابلة للتحليل، الشوية التي جرت الفلسفة إلى طريق مسدود. لكن يجب ألا نعد ديكارت وحده مقصراً في هذا الأمر، فسوء حظ هذه الثنوية ينبع من مبدأ أقدم. ان أصله يعود في نظري لمجمع الكنيسة الثاني في القدس طنطينية سنة ٨٦٤ ميلادية الذي عُدّت فيه مراحل علم معرفة الإنسان الثلاث التي هي ميراث (وبدون دليل مظنون) عبثاً وباطلاً، واكتفى بمفهومي الروح والجسم.

#### \* الممثلة عند الشيرازبي:

اذا أردنا أن نفهم بعمق ثقافتنا المعنوية فعلينا أن ننتبه الى عواقب هذه الأمور، لأننا نرى هنا أن عقيدة بشأن القوة المتخيلة الفعالة تتسع في مرتبة الإنسان النفسي و«الجسمانية الروحانية» حتى تهدف النظريات العادلة بشأن المعرفة المحبوبة في ثنوية الاحساس والادراك. ان على بساط البحث هنا تخيلاً يختلف تماماً عما نعطيه اليوم هذا الاسم، والذي ليس سوى وهم يصدر عن الخيال<sup>(١)</sup>. هذا التخييل عبارة عن اداة للادراك والعلم الحقيقي تحمل ما بين الادراك الحسي والعلم العقلاني، كما تحمل النفس مرتبة ما بين الجسم والروح. ان ما تدركه هذه الأداة هو بصورة مطلقة من عالمها هي (عالم المثال، العالم الذي الاجسام فيه في حالة روحانية، عالم «الجسم عندبعث والنشور») عالم بين العالم الأدنى والعالم الأعلى، عالم النفس، او البرزخ القائم بين عالم المادة وعالم العقول الكروبية، لذا يعد ملا صدرا القوة المتخيلة الفعالية - وبدون تردد أو تمهل - قوة معنوية كالعقل، قوة متجردة عن جسم الإنسان، لأنها نفسها وبنحو ما جسم النفس اللطيف.

ان هذا العالم البرزخي كله قد فقد في فلسفة ابن رشد، وكانت نتيجته بالنسبة لدينا الغرب وخيمة جداً، لأن الإنسان يستطيع بواسطته هذا العالم الوسيط وحده أن يدرك الحقيقة المعنوية لمشاهدات الانبياء كحقيقة صورية، وبواسطته يستطيع أن يحصل على

(١) راجع كتابنا: l'Imagination creatrice dans le soufisme d'ibn Arabi باريس ١٩٥٨، ص ١٣٣ فما بعد.

الأموات، والمسؤولون عن حياة الأشياء وموتها. لقد كان ملا صدراً يعرف جيداً أننا لن نحصل أبداً على المعرفة إلاً بنسبة ما لنا من قربى إلى العشق والمحبة، وإن معرفتنا هي صورة العشق نفسها، وكذلك إن ما يسميه الاشخاص العديمو الاحساس والانتباه «الماضي» هو بالنسبة لحبنا في «المستقبل»، الحب الذي هو مبدأ المستقبل، لأنه واهب الحياة. إذاً يجب أن تكون لنا شجاعة ورود ميدان الحب، وألاً يكون بنا خوفُ أن «لا نكون عصريين» ومماثلين للجماعة، وأمثال هذه من الاصطلاحات المبتذلة، لأن الحكيم يعرف ان الزمان ليس مركباً مشتركاً بين الجميع على السوية، بل هو ميزان امتحان كل موجود، الميزان الذي يمتحن عظمته أو - على العكس - سقوطه المؤسف.

ولئن كان يدعوا للاضطراب والقلق مثل الورطة العميقه التي تفصل بين ما في الانشاءات الجديدة من لهيب وصداع، (هذه الصنائع الجديدة التي تستعمل للانتصار على العالم) وبين المساعي والفعالية المعنوية التي بذلها حكماؤنا الذين وفقا الى تجاوز حد لم يكن لأي نوع من أنواع الصناعات أن يذلله، فإني أتذكّر مشهدًا مؤلمًا له ميزة التمثيل والرمز. ان فكري متوجه الى حضور محيي الدين ابن عربى تشييع جنازة ابن رشد؛ ففي سنة ٥٩٥ توفي الفيلسوف الشهير ابن رشد في مراكش التي كان اتخاذها معتزلاً التزم فيه الوحيدة والانزواء، وقد نقلت جنازته الى قرطبة، وحضر مراسم دفنه ابن عربى مع اثنين من اصدقائه، وهناك رأى الثلاثة مشهدًا موجعاً جعلهم حيارى ذاهلين، ففي جانب من جانبي المركبة كان الناقلون قد وضعوا تابوتة، وفي الجانب الآخر الكتب التي كان ذلك الفيلسوف قد أَلْفَها ووضعها .. مجموعة من الكتب كانت تعادل حسداً ميتاً.

إن ابن عربي لم ينس قط الخاطر الذي قام في فؤاده: «الاستاذ في جانب، وآثاره في الجانب الآخر؟ كم كانت أمني، أن: أعلمها. تحققت آمالاً!»<sup>(١)</sup>.

قلت منذ هنيئة: إن لهذا اللقاء وجهاً تمثيلياً ورمزاً. والحق أنه في ذلك الوقت الذي بدأت فيه فلسفة ابن رشد بعد وفاة مؤسسيها تقدّمها في ديار الغرب حتى استُبدلت أخيراً في القرن الرابع عشر بما اسموه «الفلسفة الابن رشدية السياسية» فارق ابن عربي - الذي

(١) من اجل الوقوف على قصة هذه الحادثة راجع: l'Imagination creatrice dans le Soufisme d'Ibn Arabi, paris ١٩٥٨ ص ٢٢ - ٣٨ . فما بعد.

المرحلة يُطلق عليها في التعبير الديني القيامة الصغرى. ثم تصل النفس بعدئذٍ أثناء تلك الواقعة في ما وراء التاريخ التي يسمونها القيامة الكبرى إلى المقام الكامل للإنسان المعنوي. إذاً فما نسميه الجسم يواجه تحولات وتبدلات تطأ علىه تطابق البناء المثلث

«من هذا التجلي الآثم، يتبدى مظهر أعظم، ومن هذا المظهر تطلع الأسماء الباطنة، ومن الأسماء الباطنة يتسع العرش، ومن توسيع العرش تتسع دائرة الآخرة، ومن توسيع هذه الدائرة ينشأ الإنسان ويرقى، نشأًّا وارتقاءً آخرتين تامين»<sup>(١)</sup>.

تُرى، أيمكن لفكرة يبسط أمامنا مثل هذه الآفاق لا يحمل لدنيانا اليوم أية رسالة؟ أنا موقن أنه يحمل رسالة! إلاّ أنني أخصكم بخطابي أنتم يا أصدقائي الشبان الإيرانيين. ابني أعلم ان بينكم أشخاصاً يؤمنون بهذه المعتقدات الرفيعة ويعيشون على اساسها بایمان ولذة عاینتهم بنيفسی وأنا عليهم شهید؛ ولكنني أعلم كذلك أن بينكم اشخاصاً آخرين، شباناً أو ممن عَبَرُوا سنوات الشباب، يعكسون عند سماعهم بهذه الأسماء والأفكار رد فعل سلبي ليس أكثر من عذر لجهلهم، أو أنهم ينكرونها، وذلك في اكثر الموارد ايضاً اعترافاً بحزنهم وأساهم على البعد عن هذه المنابع. ان هؤلاء الأشخاص قد جازت عليهم ولا شك خديعة اسطورة «معنى التاريخ» وهم لا يستطيعون أن يفكروا في الوقت الحاضر بشأن ما يعذونه من الماضي، لأنهم متوهمون انهم قد احتازوا به.

انني أريد أن أسأّل هؤلاء: أين قَدَر نَهْر ما؟ هل يكون هذا الْقَدَر في خليج يحله الاقيانوس في خضمِه؟ أو في الصحاري الرملية التي يمْحُى فيها هذا النهر؟ أم تراه يكون في مبتداه وينبوغه؟ أجل، ان قدر نهر من الانهار إنما هو منبعه ومنطلقه. هذا هو الموضوع الذي يمكن التأمل والتفكير فيه حين ننظر الى المسيرات الجافة التي تعبّر هضبة ايران المرتفعة. ان الماضي والمستقبل، والحياة والموت، ليست حين تكون مرتبطة بالروح، من صفات الاشياء الخارجية، بل من الصفات المتعلقة بالروح نفسها. نحن انفسنا الاحياء او

(١) راجع الحاشية الطويلة جداً ذات الرقم ٦٢٨ (حسب ترقيمنا، والصفحة ٥١٨ من طبعة طهران الحجرية، ١٣١٥) على البند ٢٤٧ من حكمة الاشراق التي يجب مقاييسها على المتن الوارد في ص ٢٧٣ - ٢٧٢ من شرح أصول الكافي تحت عنوان «تحقيق عرشي وتمهيد مشرقي».